ا عجم وا صطلح
ب الاختلاف والائتلاف

ذ.سعيد الخـــــلادي (*)

قـال الحكمـاء قديما: "العلم لغة أحكم وَضْعُها" مفاد هـذا القـول المأثور الذي ينبغي أن يترسخ في الذاكرة الجماعية، أو عـلى الأقـل في ذاكـرة جمهـور الباحثين وطلبة العلم وسدنة الـثقافة، أن العـالم يفـترض فيه أن ينزّل الكلم في مواضعه، أي أن يـوفي صياغة أفكاره حقها من الدقة والسلاسة والوضوح وأن يـتحرى ذلـك قـدر الإمكـان وهـو يلاحـظ ويفـترض، ويسـائل ويُجيـب، ويسـمي ويعـرف، ويسـتقرئ ويفسـر، ويـبرهن ويستنتج، ويدرس ويؤلف، ويساجل ويناظر.

ولعـل مـن أول المتطلـبات وسـوابق الشروط لتحقيق مثل هـذا الإحكـام اعـتماد مصـطلحات فيهـا مـن الـلطافة والدقة ما يضـمن التعـبير عن المفهوم والإحالة إلى المرجع إحالة تمكّن من الإحاطـة معـرفيا بالمفـاهيم والأشـياء، فمصـطلحات العـلوم إنما هـي مفاتيح حصونها وناظمة أنساقها وكواشف مكنوناتها. ولا غـرو، أن نجـد لفظـة "مفـتاح" تتصـدر عـنوان أكثر من مؤلف يعـالج، بهـذا القـدر أو ذاك مـن الوعـي الـنظري والصـرامة المـنهجية، قضـية المصـطلحات في الفكر العربي قديمه وحديثه. مـثال ذلـك كـتاب مفـاتيح العـلوم للخوارزمي، ومفتاح السعادة ومصـباح السـيادة لطـاش كـبرى زاده. وكـذا مفـتاح العـلوم للسـكاكي، (وهـو من الكتب المؤسسة في البلاغة العربية حيث يعج بالأوضاع المصطلحية المستحدثة).

ومعـلوم أن هذه المصنفات وغيرها (ككشاف اصطلاحات الفـنون للـتهانوي، وكـتاب الـتعريفات لـلجرجاني) نهـلت من ذخائـر العـلوم الأصيلة (من نحو وبلاغة وفقه وتفسير وحديث) كمـا اسـتقت مادتهـا مـن العلوم الدخيلة، كالرياضيات والمنطق والفلسـفة. وكـان طـبيعيا أن يواجـه أصـحابها، مثـلما واجـه المفكـرون والعـلماء، مصـطلحات ومفـاهيم جديـدة، مفـاهيم اقـتحمت المجـال الذهـني العربي الإسلامي، فلم يكن هناك بد مـن أن يتصـدّوا لهـا بالتمحيص والتعريف والترجمة، وهو ما اضـطلعوا بـه دونمـا مـرجع معـتمدين في الـنقل وسـائل التوليد المعـروفة في لغـة الضـاد. ويمكـن القول أن نصيب هذه الوسائل مـن الإعمـال والـتوظيف كـان حسب الترتيب التالي: الاشتقاق فالمجاز فالتعريب ثم النحت.

وغـني عـن الـبيان أن نقـل المصـطلح العـلمي الأجـنبي بـالذات وتوحيـده عـلى الصـعيد العـربي (وذلكـم موضـوع هـذه الـندوة وهاجسـنا المشـترك) همـا مهتمان تقتضيان تضافر جهود الـلغوي والمتخصـص في عـروة وثقـى لا انفصـام لهـا، وذلك من جهـة أهميـة ضـبط المفهـوم وتحديـد خصائصـه وموقعـه مـن المـنظومة المفهوميـة التي ينتمي إليها وعالم الأشياء الذي يحيل إليـه، ومـن جهـة ضـرورة تأصيل البحث في معجم اللغة بشتى مقوماته ومكوناته لإيجاد أنسب التسميات وأوفاها بالمقصود. فلا انفصـام بـين المعجـم والمصـطلح. ونحـن إذ نـنوّه بأهمية الرصيد المعجمـي فإنمـا ننطـلق بداهـة– وليس في الأمر جدّة تذكر– من كونـه الفضـاء العـام الـذي يـنمو ويـتحرك ضـمنه الرصـيد المصـطلحي، والـنموذج المـرجعي المعيـاري الـذي تتحقق سلامة

(*) أستاذ بالمدرسة العليا للأساتذة ، تطوان.

الوحـدة المصطلحية وفق ضوابطه وأصوله. ومن ثم فإن العلاقات الـتي تنـتظم الرصيدين هي علاقات قوامُها الاحتضان والامتداد والـتكامل والائـتلاف بيـد أنهـا لا تخـلو مـن بعـض الـتوتر والاضطراب والاختلاف.

I– المعجم والمصطلح:

مما يستوقف الـناظر في أمـر الـلغة أن نصيباً وافراً من مفـرداتها تعتريـه ضـروب من التداخل الدلالي والتشعب ينجم عـنهما، أحيانـاً لـدى المتـلقي قـلق في القـراءة وتذبـذبٌ بـين الإمكانات التأويلية، فهذه اللفظة تتأرجح بين دلالات متعددة، وتـلك يـتحد فيهـا الـدال وتفـترق المدلـولات (وهـو الاشـتراك الـلفظي)، وأخـرى تضـطرب بـين الحقيقـة والمجـاز، وبـين التصريح والإيماء.

وليـس بخـافٍ أن هـذه الظواهـر الـتي تُعزى إلى طبيعة المخـزون المفـرداتي من حيث إنه أدنى مكونات اللغة استقراراً وثـباتاً وأكـثرها عرضـة للـتغير والـتطور وذلـك بحسـب ظهـور الحاجـات التعـبيرية. مـثل هـذه الظواهر إنما هو عنوان حيوية اللغة وقابليتها للاتساع والإثراء وأريحيتها في استقبال المعنى الطـريف والدلالـة الطارئـة، عـلماً بأن الألفاظ متناهية والمفاهيم الحادثة ليست كذلك.

غير أن أسباب الاضطراب الدلالي هذه ما كانت لتحول بصـفة مطـلقة دون نجـاح الوظيفـة التواصـلية، فمـتى أشـكلت اللفظة علينا وانبهمت كان لنا في السياق ملاذاً نلوذ به وفيصلاً نحـتكم إليـه في معظـم الأحيـان، إذ بـه (أي بالسـياق) ينـتقل المعـنى مـن القوة إلى الفعل، وفي ضوئه تتحقق افتراضات دلالية دون أخرى.

ويختـلف الأمـر اخـتلافا ملموسـا في المجال المصطلحي حيـث يُـراد للمصـطلح الواحد أن يتمحض للمفهوم الواحد دفعاً لـلغموض ورفعـاً للاشـتراك واللبس. ومن أوائل الشروط لتحقيق هـذه الأحاديـة الدلاليـة تحديد المجال المعرفي الذي ينتمي إليه المصـطلح "فكـثير مـن الوحدات المصطلحية تستعمل في أكثر من نظـام مصـطلحي. لكـن هـذا الأمـر لا يعطـي صـفة الاشـتراك للمصـطلح في المسـتوى الدلالـي (كما يقول عثمان بنطالب) لأنه يوظـف كـدالّ في ميـادين معـرفية مختلفة. والشرط الأساسي في عدم الاشتراك يبقى متوافراً لاختلاف الوظيفة المرجعية الخاصة بكـل نظام". فليس سواء أن نقول: نظام اقتصادي/ نظام غذائي/ نظام ضريبي / نظام دولي أو نظام الدولة.

وليس سواء أن نقول في الفرنسية:

جهاز عصبي	Système nerveux
منظومة، مجموعة	Système solaire
نسق / منظومة	Système philosophique
نظمة معادلات	Système d'équations

واللافت في صيغة هذه الوحدات المصطلحية أنها تتخذ شـكل مركـبات اسميـة يقترن فيها الموصوف بالصفة أو المحدّد بـالمحدِّد (déterminé + déterminant) وذلـك بالـنعت وبالنسـبة أو بالإضـافة. وهذه طريقة دارجة جارية يتوسل بها المصـطلحيون لـتحديد الميـدان المعـرفي، ولـتأمين الحصر الدلالي الـذي يقـوم عـلى عـزل المفهـوم عـن مفاهيم مجـاورة عامـلة في حقـول معـرفية أخـرى، وعـلى تقييـده وتخصيصه بالقياس إلى مدلـول الـلفظة المعجمـي العـام، وهـو تخصـيص تنتقل بموجبه المفـردة مـن دائرة المعجم إلى سجل الاصطلاح. فبالمركب الاسمي ينـتفي قـدر كـبير من التعدد والاشتراك، وبه يتسنى للمصطلح أداءُ وظيفـته المـرجعية بـنجاته مـن اللـبس والغموض. ومن هنا شـرف مرتبـته وحظوتـه لـدى المصطلحيين ومنهم "ألان راي". وهـو إنمـا يسـتمد هـذه الحظـوة مـن طابعـه الـتحديدي وبعـده الإبلاغـي في المسـتوى القطـاعي، مستوى الثقافة العالمية، ومن بعده التبسيطي والتعليمي في مستوى الثقافة المشتركة.

غـير أن الأمـور ليسـت بهـذه البسـاطة ، فكـثيراً مـا تسـتوقف ممـارس الترجمـة العـلمية، بـل وتحيّره مصطلحات تـتقاسمها وتجـتمع فيهـا مفـاهيم ودلالات متبايـنة وإن تعلق

الأمـر بمركـبات اسميـة منتظمة في حقول معرفية محددة. يكفي هاهـنا أن نستحضـر مـا ورد أمـس في مداخلة الأستاذين برهون والرهوني ، فعبارة Formule chimique التي جاءت في نص مجالـه عـلم الكـيمياء – مـا كان المقصود بها الصيغة الكيميائية كما يتبادر إلى الذهن أول وهلة، وإنما طريقة كيميائية معينة.

وإذا كـان هـذا حـال الأسماء المركبة، فما بالنا بالأسماء البسـيطة، تـلك الـتي يتوفر فيها التجريد الاصطلاحي (حسب تعـبير عبد السلام المسدي) و (التجريد بمعنى لمّ الأجزاء وجمع المكونـات في كـل واحـد) وهي أعلى مراتب الاصطلاح إذ يتيسر تصغيرها والنعت بها والنسبة إليها.

فمصـطلح "حـدّ " قـد يُـراد به في المنطق (وداخل النص نفســه) الــتعريف Définition، والقضــية Prémisse و Proposition (الحـــد الأكـــبر = الحـــد الأوســـط) أو المقدمة الكبرى La proposition majeure et mineure والصـــغرى في القيـــاس المـــنطقي Prémisses d'un syllogisme (حيـث نقـول طـرفا قضـية) Les termes (limite) propositions/ والطرف terme ، كما يعني التّخوم والـلفظة الفرنسـية induction قـد يـراد بها في المجال العلمي نفسـه الاسـتقراء أو التحريض، ويضيف المعجم العلمي والتقني(MEN)(Lexique Scientifique- technologique) مقابلا آخر هـو التخـلف. ونلاحظ في هذا المعجم بعض القلق في التعامل مع هذا المصطلح وتفريعاته:

تعدد دلالي	تحريضية، معامل التحريض	Inductance
اشتراك لفظي	تحريضي	Inductif
غياب الشقية	محرض، مستخلص	Induit

والاستخلاص أقـرب إلى الاسـتنباط منه إلى الاستقراء. أمـا المعجـم الموحـد فـلم نعـثر فيـه على أثر لهذا و لا لتفريعاته الاشـتقاقية. ففـي مـثل هذه الحالات وغيرها كثير، يتعذر على المترجـم رفـع الـتعدد والاشـتراك وإيجـاد المقـابل الملائـم إلا أن يسـتند إلى القـرائن السـياقية الـتي بهـا ينـتفي هـذا الـتحقق المفهومـي ويثـبت ذاك. آنـذاك فقـط تـنحل عقدة لسان المترجم وينطق الكلمة الضائعة العصية.

إذن فعـلى السـياق المعـوّل، سـواء في المعجـم أو في المصـطلح. ومـع ذلـك تظل الوحدة الاصطلاحية عموماً أدنى إلى الأحاديـة الدلالية منها إلى التعدد والاشتراك (انظر Bayloux Fabre) في الأدبيـات المعجميـة الفرنسية، تعد الأحادية حكراً على المصطلح العلمي والتقني).

المعجم والمصطلح أو الاعتباط والمناسبة:

سـنتناول الآن وجـها آخر من أوجه الموازنة بين الرصيد المعجمـي والرصـيد المصـطلحي، وذلك بالرجوع إلى طبيعة وضع المفـردات ونشـأتها والـبحث في صـلتها بمسمَّياتها . فلما كانت الـلغة مواضـعة واتفاقـاً على إفراد هذا الاسم لهذا المسمى وعلى تخصيصـه بـه تخصيصـاً لا يسـتند إلى علاقـة طـبيعية، أي إلى رابـط معـلل، كان الاعتباط هو السمة المهيمنة على العلاقة بين الـدوال والمدلـولات والأشـياء. فباسـتثناء حكايـة الأصوات التي ينطـبق فيهـا الاسـم عـلى المسمى، لا يكاد يخلو الدليل اللغوي مـن الاعتـباط. وهـذه العلاقـة الاعتباطية التي لا يعضدها وجود المسوّغ إنمـا تقتصـر عـلى الوضـع الأول أو ما يسمى في البلاغة بالحقيقـة. فالحقيقـة، كمـا يقـول الجـرجاني هـي " كل كلمة أريـد بهـا مـا وقعـت له في وضع واضع وقوعاً لا يستند فيه إلى غـيرة (أسرار البلاغة، ص324). هي إذن وضع لا يرتكز على مسـتند ولا يحـتكم إلى نمـوذج أو إطـار مـرجعي، فكـأن الكلمة لقيطـة أتـت مـن فـراغ، لـذا عُدَّت اللغة اصطلاحاً من الدرجة الأولى.

أمـا الاصـطلاح العـلمي – وهـو الـذي يعنينا – فهو من الدرجـة الـثانية، إنــه "مواضـعة مضـاعفة، عـلى حـد تعـبير عبد السلام المسدي،إذ يتحول إلى اصطلاح في صلب الاصطلاح. فهـو إذن نظام إبلاغي مزروع في حنايا النظام التواصلي الأول، و هـو بصـورة تعـبيرية أخرى علامات مشتقة من جهاز علامي أوسـع مـنه كمّـا وأضـيق دقة". يبدو إذن أن المصطلح يعرى من

الاعتـباط إذ هو مأخوذ عموماً من مفردات موجودة سلفا، وذات دلالات قائمة يتحقق بها الوصل والمناسبة.

واستحضارنا المناسبة (وتسمى أيضاً الملاحظة في البلاغة مـثله مـثل إشـارتنا الآنفـة إلى الحقيقـة، لا بـد أن يقودنـا بالاسـتتباع وبمقتضـى التداعي والـتلازم بـين هذه المفاهيم إلى الحديـث عـن المجـاز (الذي لا يخفى دوره سواء في البلاغة أو في الاصطلاح). وحسب التعريف الذي وضعه الجرجاني: " كل كلمة أريد بها غير ما وضعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول فهي مجاز ".

والملاحظـة تعـني مـا يقـوم مـن علاقـات بـين المعـنى الأصـلي والمعـنى المجـازي. ففـي لفظـة "شجرة" مثلا، نلاحظ أن العلاقـة بـين الاسـم والمسـمى تقـوم عـلى الاعتـباط (التسمية المرجع، أسماء مختلفة في لغات أخرى).

لكـن إذا أخذنـا مصـطلح "شـجرة النسـب" وهـو متواتر في عـلم الأنسـاب أو "هـو مـن شـجرة النبوة"، تبين لنا أن بين الوضـع الاصـطلاحي والوضـع الأصـلي ملاحظـة تقـوم عـلى المشابهة. فالتحول في المجاز عملية واعية يعضدها وجود الرابط المعـلل، وهـي كمـا لا يخفى وسيلة تعبيرية خصبة يتجاوز بها المتكـلم وكذلـك المصـطلحي ضيق وسائل التعبير ويطوعها لأداء المعاني الحادثة.

وتجـدر الإشـارة فيما يخص القضية الاصطلاحية إلى أن مـا ينسـحب عـلى المجـاز يصـدق إلى حـد بعيـد على وسائل التوليد الأخرى، من اشتقاق ونحت وتعريب.

ففي كل هذه الحالات، تتأسس الأوضاع الجديدة، وإن اختـلفت صيغها وطـرائقها، عـن أوضاع معجمية أو مصطلحية قائمة الذات سلفا، وإذن على دلالات ومفاهيم معهودة وحاضرة في الأذهـان، وإن لم يكـن ففـي القواميس والكتب . (الاشتقاق: شجرة خلاف تشاجر...).

II الوضع المصطلحي وثنائية الائتلاف والاختلاف:

بمـا أن الاصطلاح اتفاق وتعارف، فحري بنا أن نتناول وحـدة مصـطلحية تجري على الألسنة والأقلام في العالم العربي مسـتجيبة لمعيـار الـتوحيد المصـطلحي في الـتداول المطـرد والاسـتعمال الجـاري. يتعلق الأمر بمصطلح "علم البيئة" المقابل العـربي لــ Ecologie فهـل يتـبدى من جهـة الدلالة اتحاد أم اخـتلاف جـزئي بـين المصـطلح الأجـنبي ونظيره العربي؟ وهل يسـم هـذا الأخـير مجمـل خصـائص المفهـوم وأوجـه المرجع أم يجتزئ بعضها؟ وهذا أمر منطقي بل ضروري في الأغلب الأعم، نظـراً لعـدم تطـابق الأنسـاق الـلغوية وتبايـنها في تقطيـع واقع الإنسـان وتجربـته في العـالم؟ ثـم هـل تم استيحاؤه من صميم اللغة؟).

وفي حالـة الإثبات، هل يبدي هذا المصطلح خلال سفره من الوضع الأول إلى الثاني، أي عند انتقاله من فضاء المعجم إلى إطـار الاصـطلاح، هـل يـبدي امـتدادا دلالياً ملموساً بين المعنى الأصـلي والمفهـوم الخـاص الطـارئ؟. وفي هـذه الحالـة، ما هي الصلة المنطقية والمجازية التي تؤسس هذا الامتداد؟.

في المدخـل المعجمـي écologie، يـورد قاموس Petit Robert الـتعريف التالي: " هو دراسة الوسط الذي تعيش فيه الكائنات الحية وتتكاثر وبحث علاقتها بهذا الوسط".

أمـا المعـلومات الـتأريخية التأثيـلية (وهـي مـا يهـم في اخـتيار قـاموس عـام) فتـبين كيـف أن هذا المصطلح استعمل في الفرنسـية أول مـرة سـنة 1904، وأنـه مقـترض مـن الـلغة الألمانيـة حيـث وضعه العالم الألماني "هاكل" Haeckel بصيغة Decolgie سـنة 1873 (إحـدى وثلاثـون سـنة تفصل بين وضع مصطلح في الألمانية واعتماده في الفرنسية).

أمـا أصـل الكـلمة، فيـتكون مـن الـلفظة الإغـريقية " Oïkos" وتعـني" الـبيت والمسـكن"، ومن اللاحقة "Logie" ومـن المثير للانتباه أن مشتقات من قبيل écologique النعت / النسـبة و écologiste العـالم والممـارس المتخصـص في هـذا المجـال – هذه المشتقات لم تنل حق المواطنة في الديار الفرنسية إلا سـنة 1968 – مما قد يعني قصور الفرنسيين وتأخرهم في

هذا المجال المعرفي).

غير أن الطريف حقاً هو ما يشير إليه القاموس المذكور من أن مصطلح Ecol صيغ على منوال Economie الذي يعني في أصله الإغريقي "تدبير المنزل"(حيث المكون oïkos معناه المنزل و" nomos " administer= سير تسييراً؟ ودبر تدبيراً. ولا غرابة ، إذ نجد في تصانيف العلوم لدى العلماء المسلمين القدامى مبحث تدبير المنزل بالذات، مدرجاً ضمن العلوم العملية كالطب والكيمياء وعلم الحيل وسياسة الرعية. ويبدو أن هؤلاء العلماء ترجموا اللفظ الإغريقي ترجمة حرفية بواسطة المركب الاسمي، بيد أن الاستعمال لم يلبث أن رجح لفظة اقتصاد (تجريد + متوفر في الأصول)

Ecole : escole ; lat, schola—>gr skholé

تفريعات اشتقاقية : Scolaire, Scolarisation ; Scolastique

البيئة في المعجم العربي:

من خلال هذا النبش الإثالي البسيط الذي تأتى به الكشف عن السمة الدلالية "بيت ومسكن" في المدلول الأصلي لمصطلح Ecologie، قد يظن الدارس أن المقابل العربي "بيئة" (مضافاً إلى علْم) وهو الذي يقترن في الأذهان ببعض الألفاظ المجاورة كالمحيط والوسط والفضاء والمناخ والجو - أقول قد يظن أن اعتماده تم انطلاقا من التعريف، أي من العبارة التحليلية الشارحة ("دراسة الوسط ...") ولا بدعة في هذا، فالممارسة المصطلحية تنبني بكيفية مطردة على وضع وحدات جديدة باستيحاء واحدة من الخصائص المفهومية الواردة في التعريف المصطلحي (حاسوب مثلا)

الظاهر إذن أول وهلة أن ثمة شبه تغييب للمعنى الإثالي "بيت مسكن" وأن التركيز وقع على مفهوم الوسط الذي يشكل سمة دلالية جوهرية في هذا المصطلح. فهل جرت الأمور فعلا على هذا النحو؟

في القواميس العربية:

إن لفظ البيئة مشتق من المادة المعجمية "ب و أ " وصيغة الفعل من هذا الجذر هي "باء يبوء بوءاً "

المعجم الأساسي:

باء المرء بالشيء وإليه: رجع حيث نقول: باء بالفشل، وفي الآية الكريمة: و "باؤوا بغضب من الله".

لسان العرب:

يضيف اللسان استعمالا آخر: " باء بذنبه وبإثمه" احتمله، وصار المذنب مأوى الذنب. والباءة والباء: النكاح، والأصل في الباءة المنزل، ثم قيل لعقد التزويج "باءة " لأن من تزوج امرأة بوأها منزلاً. هكذا فبوَّأ الشخص منزلاً وفيه: أنزله ومن "بَوّأ" نفضي إلى تبوَّأ".

- المكان وبه : نزله وأقام به
- مكانة : شغَلها

والبيئة والباءة والمباءة، كلها ألفاظ تعني المنزل، كل منزل ينزله القوم. وتختص المباءة باستعمالات أخرى:

- من الرحم: حيث تبوّأ الولد
- الغنم : منزلها الذي تأوي إليه

وهناك معنى محدث للمباءة ينص عليه المعجم العربي الأساسي، وهو المكان المشبوه: أغلقت الشرطة هذا المنزل لأنه كان مباءة للرذيلة.

هكذا يتبين أن المعنى الأصلي للفظة "بيئة" هو المنزل ، ثم صارت تعني المكان الذي تتوافر فيه العوامل المناسبة لمعيشة كائن حي. وهذا المدلول هو الذي يتحقق في مصطلح علم البيئة (دراسة علاقة البيئة بالأحياء).

لامراء إذن في أن هذا المصطلح ينبني على امتداد دلالي ملموس بين الوضع الأول والوضع الثاني، فقد احتفظ خلال رحلته من مجال المعجم إلى مجال الاصطلاح بسمة المكانية

وملازمتيها العيش والإقامة، هذه السمات التي تتجلى وتتجسد في البيئة – المنزل إطاراً محصوراً يكاد يكون على الإنسان مقصوراً وفي البيئة – الوسط فضاء أرحب وأوسع لأصناف شتى من الكائنات الحية. ويمكن وسم هذه العلاقة بعلاقة التقاطع المنطقي، ويقصد بها المناطقة الصلة بين مفهومين لهما خصائص متماثلة. وجلي أن هذا الاتصال الدلالي تأتى بالمجاز الذي قوامه المناسبة بين المعنيين. غير أنه مجاز استقر في اللغة فصار حقيقة (وهذا هو النقل) حيث طغى الوضع الثاني على الأول الذي يبدو أنه تُنوسي في التداول، وهذا شأن العديد من مفردات اللغة كالسيارة والقاطرة والصوم والزكاة والحج إلخ.

هذا فيما يخص المصطلح العربي منظوراً إليه من جهة تطوره الذاتي، أما إذا عقدنا مقارنة بينه وبين مقابله الأجنبي، فإننا نخلص إلى أن الائتلاف هو السمة المهيمنة. ففي الحالتين نكاد نلمس ذات الانتقال من المعنى الأثالي– حيث يتقارب المدلولان مفهوماً وما صدقاً – إلى المعنى الاصطلاحي الراهن. وفي الحالتين تمَّ الانسياب من الدلالة المعجمية إلى المفهوم الاصطلاحي انسياباً متناظراً قوامه احتفاظ المفهوم بطابعه المحسوس، ومروره من الخصوص إلى العموم (وهذه إحدى العلاقات التي تندرج ضمن ما يسمى بالملاحظة) وإبرازُهُ الخاصية المفهومية الأساس وهي المسكن.

على أن هذا الائتلاف لا ينفي بعض الاختلاف بين المصطلحين فلَمَّا كانت الباءة في العربية تعني النكاح مثلما تعني المنزل لأن من تزوج امرأة بَوَّأها منزلاً (ولنستحضر كذلك المعنى المحدث للمباءة : الماخور) كما أسلفنا، ولما كانت البيئة تتضمن خاصية التكاثر بين ساكنتها حسب التعريف العلمي المتعارف، ساغ لنا إلى حدٍّ ما أن نعدّ مصطلح علم البيئة أشمل وأوفى بالمقصود من نظيره الفرنسي (Ecologie)، وأقرب إلى حقيقة الأشياء ، غير أن هذا الاستنتاج ما كان ليضع ويحطّ من قيمة المصطلح الفرنسي، أوَّلاً لأن الشمولية والدقة المتناهية لا تتحققان وليس ضروريا أن تتحققا في كل الاصطلاحات، وثانيا لأن هذا المصطلح يؤدي بنجاح وظيفته التواصلية – وهي بيت القصيد – سواء على مستوى اللغة المتخصصة أو على مستوى اللغة المشتركة.

وفي هذا الباب، باب التداول، يطالعنا فرق آخر بين المصطلحين. فنحن العرب نحافظ على البيئة، نحافظ عليها في كل الاستعمالات اللغوية بينما يلجأ الفرنسيون إلى صيغ أخرى. فنحن نقول: المحافظة على البيئة بينما يقولون Protection de l'environnement ولا يقولون * Protection de l'eco. ذلك أن هذا المكون اللغوي الإغريقي لا يحظى بالاستقلال المعجمي، فهو مجرد صدر (أو سابقة = Préfixe) دخيل على اللغة الفرنسية ، ويظل وروده محصوراً في تصدر بضع مصطلحات علمية لا تخرج عن حقلين اشتقاقيين (Economie et Ecologie) وبما أن لكل لغة آليات تعويض تحقق بها التوازن الإبلاغي وتستنجد بها لسد ثغراتها التعبيرية ، كان لِزاماً اللجوء في هذه الحالة إلى لفظة (Environnement) التي اشتقت من environ ثم أفرزت هي الأخرى امتدادات اشتقاقية من قبيل Environnemental و " Environnementaliste". أما لفظة بيئة فحضورها أقوى وموقعها أمكن في التداول لأنها عربية صميمة. وبذلك تبقى النسقية الاصطلاحية مَوفورة مَصُونةً ها هنا فيما تضطرب هنالك. وهذا الاختلاف إنما مَردَّه الفرق الجوهري بين نسقين لغويين يسودُ أحدَهما الاشتقاق بينما ينتظم الآخر الإلصاق.